تريزا

ذكرى عابرة

*كان يجلس على المقهى ويضحك برفقة أصدقائه وإذا بصوت العندليب يشدو..

حبيبها
لست وحدك حبيبها..
أنا قبلك!
وربما جئت بعدك
وربما كنت مثلك!
فلم تزل تلقاني
وتستبيح خداعى
بلهفة في اللقاء
برجفة في الوداع..

فسكتت ضحكاته ثم بكى قلبه وترك أصدقائه وذهب إلى حيث لا يدري!! وفي الجهة الأخرى كانت تتذكر ملامحه التي وشمتها كلماته على الورق..

تريزا العالم الصاخب بالنسيان تعاني من الزهايمر والذي يمنعها من تذكر أي شيء حتى تلك الأشياء التي لامست قلبها،وهي أيضًا جدة يوسف الشاب الوسيم الذي لا

يتخلى عن سلسال والدته ودائمًا لا يفارق صدره،أحيانًا يترك لنا الأموات أشياءهم ليعذبونا بها.. ربما!!

غرفة يوسف أشبه بالحلم فجدرانها الأرجوانية تعطي ملمسا ناعمًا لكل شيء ,الأريكة، النافذة،الطاولة المستديرة بالمنتصف، جدائل الياسمين المتدلية على النافذة من الخارج تمنحها عطرا مميزًا،أحيانًا تأتي صباحات مكدسة بالحنين كهذا الصباح الذي سجن يوسف خلف نافذة الذكرى لساعات طويلة.. سحب الكتاب الذي كانت تفضل قراءته فبين صفحاته الكثير من الرسائل التي تركتها له،في الورقة الأولى كتبت له:

أنت أقوى من:
الخيبات
الخذلان
الألم

و أضعف من:

الحنين
النسيان
والقلم

أنا مثلك ينتابني الضعف عند رؤية الحبر الأسود وهو يتلاعب على سطور صفحة بيضاء أيقنت اليوم أن سواد الحبر فتنة وبياض الورق إغراء.

وهنا توقف للحظات ليتذكر حديثًا قد دار بينهما ذات لقاء:

- يوسف لا تقل الحقيقة!

- لماذا؟؟

- لأنهم سيغضبون،سيغضبون عليك وتنهمر عليك الشتائم من حيث لا تدري.

- وماذا أفعل أكذب؟!

- لا.. لا تكذب.. لا تقل شيئا.. هكذا أفضل..

أغمض عيناه للحظات وأيقن أنها كانت على صواب وكان يجب عليه ألا يخبر أحدا بالأمر، أو على الأقل ألا يتركها وحدها في مواجهة الجميع دمعة عابرة شقت طريقها من عينيه وسقطت على الورق، وهنا يسحب الورقة التي تحمل الرسالة الثانية:

"البعض تستيقظ له الكلمات" وأنت من هؤلاء لقد طال بك الغياب وقد كان الوقت يمضي ولا يمضي .

الساعة الآن العاشرة مساءً ولكن بتوقيت الشتاء الماضي لا زالت رائحة عطرك عالقة بزوايا الذاكرة،

متشبثة بكف الحنين وملتحفة بستائر الغياب،أنظر إلى ساعتك متأخرة عام ونصف ودقيقة من الاشتياق.!أين أنت؟"

ثمة أوراق تعبث بنا وتلقي بنا في بئر عميق يصعب علينا الصعود منه بين يومًا وليلة،لذلك كان يسحب رسائلها من الكتاب واحدة تلو الأخرى مستمتعًا بوجعه وهو يقرأ الثالثة:

ذات نهار قرأت هذه الكلمات في إحدى الجرائد

"" حين مر العابرون عليها ذات مساء..
لم تكن هي...كانت تضفر جدائل الحزن..على كتف السنين..
تركوها.. على مشارف الطرقات
نسوها.. وتناسوا كم تقاسموا معها فتات الخبز..
وكم.. تهامسوا بالضحكات سويًا.. ومضوا والمطر يئن خلفهم ""

أتعلم أن تلك الكلمات تذكرني دائمًا بتريزا ولا أعرف لماذا أراها كل ما قرأتها هل انتابك ذات الشعور مثلي أم أنني أغرق وحدي، أتعلم كانت كل ما تراني تسألني أتبكين؟ فأقول لها :

لا أمسح عن عيني غبار غائب تذكرتـه.. أنـا لآ أبكـي!!
كانت تطيل النظر إلى وجهي وكأنها تخبرنـي بـأنني كاذبـة وإني حقًا أبكي،يوسف متى ستأتي؟؟

كانت يداه تتلهف وبشدة لسحب رسالة أخرى فكم يعشق خط يدها وذلك النبض الذي تركته له على الورق ثم أنه لن يغفـر لنفسـه خطيئتـه لـذلك يقـرأ أحرفهـا المغموسـة بقلـب الوجع دومًا، وهنا يتوقف قليلًا ثم يتابع القراءة:

يوسف أعلم انك لـن تسـألني ولكـن أرجـوك لآ تسـألني كيف أمسيت؟!.. فهذا المساء ليس بخير..

الشوارع،
البيوت،
الأزقة،
الأرصفة،
أوراقي،
كلماتي،
أشيائي، وأنا أيضا لسنا بخير!!!!

وتلـك الطاولـة التـي يتكـأ عليهـا الحـزن هنـاك لا تتسـع لمقعدين..

وهذا الفنجان الملطخ ببقايا القهوة يتلاعب بمزاجي..

إنه أيلول الـذي لا أعـرف لـه ملامـح ملـيء بالأحاديـث الموجعة التي تحمل رائحة البكاء .

والان دعني أواعد ظلي على فنجان آخر لنتجرع سـويا خيبة الغياب.." .

يلملم روحه ويترك الكتاب ثم يتساءل كيف لي أن أكون بتلك البشاعة، كيف لي أتركها،كيف لي أن أفعل كل هذا بها وبقلبي؟؟؟؟ وكأن علامات الاستفهام تركض خلفه كما يركض الذئب الجائع خلف فريسته..

لم يتوقف عن ذبح نفسه فأخذ ورقة أخرى ولكنها جاءت كمسكن موجعا لأنفاسه:

أتذكر قول نزار /"وسيبقى الياسمين أبيضا مهما خانته الفصول "

صدقني ستشهد جدائل الياسمين المعلقة على تلك النافذة على كل الكلام.. كل الوعود.. كل الرسائل والكلمات

فكيف لها أن تنسى بعدما أمطرت عليها غيمتي وامتزجت تربتها بملح دموعي..

لا زال هناك متسع لرسائل أخري..كلمات أخري خالية من الوعود.. من عبثية الاشتياق.. من حماقات السهر..

و خالية من الحب، استنشاق عبقها سيكون موجع،موجع يايوسف!

ثم يتوقف عن قراءة الرسائل ليعود لذاكرة الأحاديث التي دارت بينهما، يتذكر المكان،الرائحة، الصوت،لمستها كل شيء حاضرًا عدا هي، يئن جرحه فيستمع لصوتها حين قالت:

- يوسف،رمادية هي الأيام!

- لا ليست الأيام،نحن فقط تائهون بين الأبيض والأسود..

- أبيض وأسود، وهل يعطيك القدر فرصة الاختيار بينهما؟!

- أنت تحبين الحزن بل ربما ما هو أسوء من ذلك تقدسيه!! لذلك الرمادي لونك المفضل.

- الحزن يطهرني من خطيئتي!

- أي خطيئة؟!

- عشقك خطيئة،ذنب لا يغتفر، وفي كل ليلة أغتسل بأحزاني علّها تطهرني مما أنا فيه!

- أتريدين تطهير قلبك من عشقي؟!

عليك أولا بالصوم عني، أفعلي معي كما يفعل راهب متعبد زاهد في صومعته، تخلي عن ملذات الدنيا، ابصقي من فمك كل مات العشق على أرض عاقر حتى لا تنبت لك عشقا أخر،

اقتليني أو أذبحيني افعلي ما شئت وصدقيني حتى لو طالت أحزانك عنان السماء لن تطهرك من عشقك لي !

يتوقف ليأخذ هاتفه القديم وينبش في الرسائل كما لو كان ينبش في قبره.. وقرأ على نفسه:

لم أكن أعلم أن في عشقنا حرب!!!
لم أكن أعلم أن الموت كان قريب منك!!!
لم أكن أعلم أن كل ما حدث كان سيحدث!!!

ولكن
لآ يهم لا زلنا معا،،
بعثت لـه بتلـك الرسـالة عنـدما علـم الجميـع أن يوسـف يعشق فاطمة، أكمل الركض خلف الرسائل فأبتسم لهذه:

أكتب إليك قبل منتصف الليل بخمس دقائق
مذكرات فتاة حمقاء
عنوان يليق بدفتري الأسود الجديد ودائما رائحة الورق تثير شهية حبري!.
سأرتب على سطوره الأولى خيبتي..
و من بعدها سأسرد حماقاتي..

أنا وأنت بالمنتصف لا فراق ولا لقاء..
فكم يلزمني من الأنفاس حتى أفرغك من ذاكرتي؟!
بـل كـم يلزمنـي مـن الوقـت حتـى تحتـرق صـورتك بداخلي؟!
وكم يلزمني من النبض حتى يقتنع قلبي أن الأشياء التي ترحل لا تعود؟!

كانت رسائلها من فرط حزنها تضحكه وتبكيه لـم ينجـو من الورق ففي كل مرة يمسك بالرسالة الأولـى لا يتركهـا إلا عندما يخطو من فو ق عتبات الأخيرة لذلك أكمل قارئا:
حبيبي يوسف/

هذا المساء يشبه الرسالة الطويلة الحمقاء، التي أفرغت على سطورها أبجدية تائهة،محشوة ببعض السذاجة.. كأن أكتب لك في بدايتها عزيزي وأنت لست عزيزي.وفي نهايتها أتمنى لك السعادة وفي الحقيقة أنا أتمنى أن تقضي ليلة بائسة مثلي.. ومنتصفها مليء بالهراء والأكاذيب،أنا أحب الكذب عندما تصبح الحقيقة عارية باحثة عن شيء ما يستر عورتها ولا تجده!

أتعلم سقطت مني حروف قليلة سهوا في مكانا ما بهذه الرسالة كتبت لك""أحبك""،وكانت أكثر الحروف الصادقة في تلك الورقة الطويلة فيما عدا ذلك لا تصدق ما أكتبه دائما!

يوسف كن بخير ولا تغيب..

يترك الكتاب والهاتف ليعود مرة أخرى لأحاديثها فيتذكر:

- أتعلم يا يوسف ما الذي أوجعني.. أنك لا زلت تفتش عن بقاياها بداخلك.. لا زلت تكتب عن ذاك الحب الأول..

- فاطمة أتدرين لماذا لا ننساه؟!

- لأنه الخيبة الأولى،الوجع الأول، الخذلان الأول، الجرح الأول، وربما لأنه اللمسة الأولى ,القبلة الأولى، الحضن الأول، السعادة الأولى .

- هو كل ما ذكرتيه وكل ما لم يذكر، حبي الأول ليس الأخير.. أنت آخر محطاتي.. آخر أوجاعي.. آخر عشقي..

ثمة وقت نعبر فيه من ممرات الذاكرة تمامًا كمن يعبر من متاهة كل همه أن يجد سبيلًا للخروج ويوسف لم يحاول أن يجهد ذاكرته في البحث عن المخرج كان يغمس أنفاسه فيها أكثر بل ويتوقف أيضًا بالردهات الأكثر عتمة وهنا يسحب أنفاسه ليتذكر حديثًا بينها وبين تريزا فتنغمس روحه فيها أكثر:

-تريزا إلى أين يأخذك زهايمرك اللعين؟! علام تنظرين؟! يا امرأة أنهكت الذكرى حتى أصابها النسيان
-من يسكن هناك بتلك النافذة المغلقة؟!
-ذكرتيني بفيروز أنا عندي حنين ما بعرف لمين.. تلك النافذة التي ماتت عليها أغصان الياسمين للشاب الوسيم الذي لا تتشابه أخلاقه مع ملامحه أبدا.. و والده المسن!
- لماذا تتحدثين عنه بطريقة غير مهذبة؟! هل هذا ما تعلمتيه بالمدارس قلة الأدب؟
-ما فعله بوالده يجعلني أحتقره كل ما نظرت إلى أغصان الياسمين التي أصابها الجفاف من فعلته لقد ألقي به في دار العجائز الفرق بينك وبينه أنه لا ينسى!
-على من تتحدثين؟؟!

-على صاحب تلك النافذة
-من هو؟؟؟
- لآ إله إلا الله أتعلمين لو جلس بجانبك مؤمن سوف يلحد..

وهنا يتذكر ضحكاته وضحكاتها ودهشة تريزا فكم هو قاس أن تتبادل الحديث مع عجوز مصابة بالزهايمر. يأخذ هدنة ولكن الذكرى كانت أقوى من أن يؤجلها فتذكر حديث آخر:

- هل سمعت من قبل وعودا تم الهمس بها لكفي الليل وأصبحت في طي النسيان قبل بزوغ النهار؟!
- نعم سمعت وعد أحدهم لي بالبقاء و رحل! ولكن لما هذا السؤال؟!
- أذكر ذات ليل وعدتني أن تبقا والان أراك تستعد للرحيل!!
ثم يسحب ورقة أخرى تحمل ألمها بين سطورها هكذا قضى الليل عليه بين ذكرى وحديث ورسالة لم يترك له متسعا للهرب،قرأ بصوت مرتعش:

"يوسف تراكمت الأوراق هنا وعبثا أريد ترتيبها، عبثا أريد طيها فمنذ عام وأنا أكتب، وكم أنا بارعة في تكديس الأبجدية

وتخزينها،لأعاود قرأتها مرة أخرى عندما يصاب قلمي بموسم الجفاف!

حقا كانت هذه مأساة،أن نفترق هكذا ونحن لا زلنا على قيد العشق ..أنت رحلت لحمايتي منهم وأنا هنا أرتب خيبتي على جدرانهم وأقيم الحداد".

تلهث أنفاسه هنا فيبكي بحرقة لقد حان وقت الرسالة الأخيرة والتي كتبتها له بعدما فشلت الحناجر في إيصال صرختها:

"الرسالة الأخيرة"

ما الذي حدث عندما تلاقت أعيننا ونسيت أن أغلق أبواب شهواتي كما كنت أفعل في كل مرة ألتقيك فيها.

ولكن هذه المرة كان بعدك عني يمزقني،كنت كل ما هممت بالتفكير في لمسك أذهب وأغتسل وأصلي وأبكي،أبكي كثيرا ثم ألعن نفسي لأنني لا أمتلك تلك القدرة التي تجعلني أصوم عنك!

واليوم تركت نفسي لنفسي ولك ماشئت مني وفعلنا كل ما لا يجب علينا فعله، كنت بحاجة أن أضمك،أتنفس أنفاسك وأحبسها في صدري كنت أريدك بقدر ما تشتهيني فبعد تلك اللحظات لم يعد عشقنا طاهرا كما عهدنا سويا!

لم أعد أحتمل سماع صوتي وأنا أقول لك أحبك فأتذكر ذاك الفراش الذي جمعنا وفرقنا، أتذكر صوتك الشاحب وأنت تبكي،وتقول كيف فعلتها،أتذكر أنفاسي المتقطعة من

فرط اللذة التي أصابتني بين أحضانك،كم أحببت وكرهت تلك اللحظات.

""سامحيني"" هي الكلمة التي تركتها لي وذهبت إلى حيث ربك، تركتني هنا وذهبت لتجلس أمام كاهنك المسن وتعترف له بخطيئتك وتغتسل بالماء المقدس اخبرني كم من الشموع سوف تشعل بل كم صلاة سوف تصليها ليتعطف الرب ويغفر لك خطاياك الماضية..

أنت اخترت طريقك وها أنا هنا أرتب خيبتي وموتي معا، كان زهايمر تريزا أوفى منك حيث أنه لم يتركها قط.

ستجد رسالتي عند عودتك، إن عدت،سأترك لك دمي ملطخا على فراشي وسأنتقي لك أغطيتي البيضاء و وسائدي فاتحة اللون ستتذكرني دائما ،لن تنساني حتى وإن أصبحت راهبا سأبقى بداخلك عشقا وخطيئة لا تغتفر!!

عاهدتك أن أحبك حتى آخر أنفاسي،حتى آخر قطرة في دمي وها هي آخر أنفاسي سوف تشهد أني أحببتك حتى منتهاها... كن راهبا أو قديسا كن كما تريد وأنا سوف أرقد هناك بين الأموات بسلام في عالم آخر جديد...

حبيبتك فاطمة الاسم الذي لطالما أزعج العالم عندما وضع بجانب اسمك على شجرة الصنوبر.. لا تنساني.. أحببتك حتى الموت..